# الآخر في البيئة الاجتماعية في شعر يحيى بن هذيل القرطبيّ (ت٣٨٩هـ)

The other in the Social Environment in poetry of Ibn Haddil Al-Qurtubi

سجاد عبيد كطان أ.د محمود شاكر محمود

SajjadObaid Kattan. Supervision of Mahmoud Shaker Mahmoud

drandalus74@gmail.com: hh04455517@gmali .com:

**ملخص البحث :**

يسعى هذا البحث إلى تسليط الضّوء على النّتاج الإبداعيّ الّذي يأخذ منحى الذّاوت والانقسام من خلال ذات شاعرة واحدة ، فتسبح في فضاء الوجود لتلتقط شتى الصّور الّتي تلحظها في العالم الماديّ ، فيكون أشبه بما تناولته الفلسفة اليونانيّة سابقًا الّتي عُرفت بنظريّة الانعكاس ، وهذا ما يسعى إليه بالضّبط البحث في صورة الآخر الاجتماعيّ ، فستكون هناك صور اقتنصها البحث أثناء دراسته في ديوان ابن هذيل القرطبيّ وهي تعبّر عن الآخر الاجتماعيّ.

كلمات مفتاحية: ( الآخر ، ابن هذيل ، الشِّعر ، الصُّورة ، البناء الفنِّيّ)

**Summary:**

s research seeks to shed light on the creative product that takes the direction of separation and division through one poet's self, so she swims in the space of existence to capture the various images it observes in the physical world, so it is

similar to what Greek philosophy dealt with previously, which was known as the theory of reflection, and this is what exactly seeks to search in the image of the other social, there will be pictures captured by the research during his tourism in the Diwan of Ibn Hadhil Al-Qurtubi expressing the social other.

**Key word :( The other, Ibn Hathil, poetry, image, artistic construction)**

**مدخل:**

الآخر في اللغة: وردت لفظة (آخر) في لسان العرب لتدل على "الَّذِي يُؤَخِّرُ الأَشياءَ فَيضعُها فِي مواضِعها، وَهُوَ ضِدُّ المُقَدِّمِ، والأُخُرُ ضِدُّ القُدُمِ، والتأَخّر ضِدُّ التَّقَدُّمِ، والآخَر، بِالْفَتْحِ: أَحد الشَّيْئَيْنِ وَهُوَ اسْمٌ عَلَى أَفْعَلَ، والأُنثى أُخْرَى، والآخَرُ بِمَعْنَى غَير كَقَوْلِكَ رجلٌ آخَرُ، وأُخَرُ: جَمْعُ أُخْرَى، وأُخْرَى: تأْنيثُ آخَرَ، وَهُوَ غيرُ مصروفٍ"(منظور، صفحة مادة آخر)، وفي معجم مقاييس اللغة أجدُ المعنى يبحر كما جاء في سابقهِ، يقول ابن فارس: "(أَخَرَ) الْهَمْزَةُ وَالْخَاءُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ إِلَيْهِ تَرْجِعُ فُرُوعُهُ، وَهُوَ خِلَافُ التَّقَدُّمِ. وَهَذَا قِيَاسٌ أَخَذْنَاهُ عَنِ الْخَلِيلِ فَإِنَّهُ قَالَ: الْآخِرُ نَقِيضُ الْمُتَقَدِّمِ. وَالْأُخُرُ نَقِيضُ الْقُدُمِ، تَقُولُ مَضَى قُدُمًا وَتَأَخَّرَ أُخُرًا. بِعْتُكَ بَيْعًا بِأَخِرَةٍ، أَيْ: نَظِرَةٍ"(مقايس اللغة، صفحة مادة آخر).

الآخر في الاصطلاح: مفهوم "الآخر" ذاته يثير كثيرًا من الجدل. ويسمح بالاختلاف حوله ويبدو في نظر الكثيرين غير محدد على نحو دقيق إذ يرى بعض النقاد أن مفهوم الآخر هو المضاد للذات والوجه المقابل أو النقيض لها، وتأسيسا على ذلك، فإنهم يوسعون دائرة المفهوم بحيث يشمل كل من يغاير الذات على الإطلاق، وإذا طبقنا ذلك على الشعر فإن الممدوح والمهجو والمرثي والمرأة وغيرهم يندرجون في هذا الإطار وهو ما يمثل إشكالية حقيقية في الدرس الأدبي"(صورة الآخر في الشعر العربي، صفحة ١)، وهذا يعني أن الآخر مصطلح فضفاض لا يمكن حصره.

إن المجتمع الأندلسي شهد تنوعًا واسعًا في عناصر السكان، وذلك بحكم تنوع الأصول البشرية والثقافة والعقائد، وأن هذه العناصر البشريّة الّتي كونت المجتمع الأندلسي من العرب والبربر الفاتحين والوافدين ومن السكان الأصليّين (الإسبان) احتكت فيما بينها وخلقت نسيجًا اجتماعيًا متميزًا(الأدب الأندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة، صفحة ٣٠_٣١)، وقد ساهمت هذه العناصر في إنتاج حضارة اجتماعية وثقافيّة جديدة، على الرّغم من الاختلافات الكثيرة الطّبقيّة والقومية والمذهبيّة.

أما القرن الرابع الهجري، وهو العصر الذهبي للأدب الأندلسي،وهو عصر سلطان وعمران للعرب آنذاك فقد ازدهرت فيه الأندلس عامة وعمرت فيه قرطبة خاصة ليس سياسيًا واقتصاديًا فحسب بل حتى على المستوى الاجتماعي والثقافي(التاريخ الأندلسي، صفحة ٣١٤)، فكان للأدب اهتمام كبير شأنه شأن العلوم الأخرى، وقد اهتم الخليفة المستنصر(ت ٣٦٦هـ) في الأدب والعلوم و"كان محبا للعلوم مكرما لأهلها جماعا للكتب في أنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله"(نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، صفحة ٣٨٥) فقرب منه الأدباء من الكتاب والشعراء، وكانت لهم عنده منزلة خاصة يحضون بها بل كانوا من حُضّار مجالسه، ولهذا تَعدُّ هذه الفترة من أكثر الفترات خصوبة للشعر العربي في الأندلس "فقد شهدت قفزة ونهضة أدبية كبيرة، فضلا عن كثرة النتاج الأدبي المتميز وبذلك احتلت مكانة مرموقة في المغرب والمشرق"(حديث الأندلس، صفحة ٣٥٧)فقد أصبح شعراء هذا العصر ينافسون ويحاكون شعراء المشرق العربي، وهذا ما نجده واضحًا في نتاج هذه الحقبة في الأندلس.

وبما أن الشاعر ابن بيئته فصور الشاعر هذه البيئة التي تحيط به وتتشكل في ذهنه نتيجة لهذا التصور، صورة للآخرين من حوله قد تكون هذه الصورة إيجابية أو سلبية بحسب علاقته بالآخرين، "وتنشأ على هذا الأساس علاقة الأنا بالآخر أما من أجل الأنا أو من أجل الآخر أو كليهما، وتتعدد صور هذه العلاقة وأشكالها بقدر النفع والضر، بما يبدو من الانسجام والتواؤم، أو بما يصدر من التنافر والتباعد، أو بما يكون عليه من الحياد التام حينما لا يربط بين الأنا والآخر من نفع أو ضر"(صورة الآخر في الأدب الأندلسي والمغربي، صفحة ١٣) فقد يصف الشاعر الآخر مادحًا ومتقربًا أو هاجيًا وذامًا له، سواء كان هذا الآخر ملك أو أمير أو حبيبة أو صديق له أو يصف عدوًا وحاسدًا وعاذلًا له، وهذا ما يحدد العلاقة بين (الأنا والآخر) سواء كانت علاقة اتفاق أو اختلاف، فقد احتلت هذه العلاقة بين الأنا وآخرها مساحة كبيرة في الساحة الأدبية منذ القدم، "تتسع الدائرة الإجرائية للآخر على وفق تعدد زوايا النظر إليه، وفي الأحوال جميعها يشكل قيمة وجودية فاعلة في الواقع والأدب؛ إذ يقوم على مجموعة قيم تحدد الأنا مواقف متنوعة ومختلفة إزاءها؛ لأن الأنا تكون نقطة الارتكاز ، والبؤرة المنفعلة الباثة المحركة التي تنبثق عنها النظرات والرؤى والسلوكيات؛ لتأخذ العلاقة مع الآخر على وفق ذلك أشكالا متباينة تتراوح بين (القبول والرفض والنفي والإيجاب والتوافق والتباين)"(الآخر في شعر ابن الدهان الموصلي، صفحة ٦)، ولهذا فإن ثنائية الأنا والآخر متداخلة ومن الصعوبة أن نفصل بينها "وقد كشف النتاج الشعري عن طبيعة العلاقة بين الأنا والآخر، وقد كانت تتصف بالإيجابية أحيانا والسلبية أحيانا أخرى"(صورة الآخر في الأدب الأندلسي والمغربي، صفحة ١٣) أي أن وجود العلاقة بين الأنا والآخر هو وجود حتمي بغض النظر عن نوع تلك العلاقة ونتيجتها.

إنّ الحياة الاجتماعية في الأندلس هي حياة منفتحة على الآخر ولهذا تنفتح ذات الشاعر عن الذوات الأخرى في المجتمع "الإنسان كائن اجتماعي لا يمكن أن يحيا دون وجود الآخر، وهذا الآخر قد يكون فردا وقد يكون جماعة، ولابد أن يتصف بصفات مميزة أهمها أن يختلف عن الأنا في الجنس مثل الرجل والمرأة، ويختلف عنه في العرق أو القومية مثل العربي والفارسي والتركي والهندي والأوربي وغيرهم، ويختلف عنه في الدين مثل المسلم واليهودي والمسيحي وغيرهم، ويختلف عنه في المهنة مثل الأديب والمهندس والطبيب والخباز والجزار وغيرهم، والاختلاف، هنا لإيجاد فرق واضح بين الأنا والآخر"(صورة الآخر في الأدب الأندلسي والمغربي، صفحة ٩) ولهذا فإن الأنا في البيئة الاجتماعية تختلف مع الآخر في عددٍ من الصفات الإنسانية وبحسب نظرة الأنا من آخرها، ولكن يتفق معه بأنه نظيره في الخلق فهو إنسان مثله، "وبناءً على ما سبق نجد أن صورة الآخر تختلف من شخص إلى آخر، ومما يزيد الأمر تعقيدًا هو اختلاف الآخر باختلاف موقف الأنا منه، مما يشير إلى أن صورة الآخر على هذا الأساس هي عبارة عن مركب من السمات الاجتماعية والنفسية والفكرية والسلوكية التي ينسبها فرد ما أو جماعة إلى الآخرين الذين هم خارجها"(الآخر في الشعر الجاهلي، صفحة ٦) ولهذا سأنطلق باحثًا عن صورة الآخر للذات الشاعرة عند ابن هذيل، وكيف أدركت الأنا تصوير سمات الآخرين في المجتمع.

في ديوان ابن هذيل أجد أن هناك اعترافًا واضحًا بـ(الآخر) وتمييزًا له، فوجدته تارة يمدح من يحبهُ من أساتذته وشيوخه وأصحابه أو أصحاب السلطة، وتارة أخرى متغزلًا في النساء متوددًا لهن في التشبيب، وكثير من هذه المقطوعات في ديوانه تحاكي الآخر في مجتمعه ولا سيما الإنسان من كلا الجنسين بصورة مباشرة، أو بصورة مضمرة من خلال وصف مشاعره الإنسانية التي يريد فيها الآخر.

وسأتناول في بحثي هذا صورة الآخر في البيئة الاجتماعية في شعر يحيى بن هذيل القرطبي الأندلسي وذلك في مبحثين:

**المبحث الأول: الآخر الرجل**

تعبر الأنا الشاعرة لابن هذيل القرطبي عن علاقتها في المجتمع بالآخر(الرجل) فيصفهُ مشتاقًا أو ناصحًا أو مادحًا أو هاجيًا أو متهكمًا بحسب علاقته بذلك (الآخر) والذي قد يكون هذا الآخر ملك، أو اخ، أو صديق، أو حتى رجلٌ غريب، فابن هذيل هنا مصورًا للآخرين في المجتمع بصورة قد تكون صادقة إلى حد ما لأن الشاعر ابن بيئته.

تغلب المقطوعات الشعرية على شعر ابن هذيل بصورة عامة في ديوانه شأنه في ذلك شأن معظم الشعراء في الأندلس(الهوية الأدبية الأندلسية، صفحة ٢٨٢)، وطرق في هذه المقطوعات أغراض شعرية عديدة، منها الهجاء وهو "فن من فنون الأدب الرفيعة في الأدب العربي قد يعين على تصور الحياة عند الأفراد وفي المجتمع"(الهجاء، صفحة ١١)، ومن هذه المقطوعات مقطوعة يسخر فيها ويصف رجلٌ أحدب يشكو ذلك المرض والذي يقول فيها(ديوان ابن هذيل القرطبي، صفحة ٥١):

**((مجزوء الوافر))**

**شكا في ظهره حَدبَه فقلت دعوهُ يا كذَبَه**

**جرابٌ بين فخذَيهِ تعلّق تعلق صَيتَ الجَلَبه**

**فألقاهُ على كتفي هِ فهو عليهِ كالعَقَبه**

يصور لنا الشاعر في هذه المقطوعة حالة شخص يشكو من مرض التحدب وهو ورم أو نتوء عظمي في الظهر، فيتناول ابن هذيل الموضوع بروح تميل غلى الدعابة والسخرية ويشبه ذلك الورم بالكيس أو الوعاء بين فخذي الرجل الأحدب والذي يحتوي على الكثير من الحاجات التي تضج بصوت عالٍ، وتجلب له نظر الناس، فيلقي الكيس على كتفيه حتى يبدو عليه كمرتفع يعلو فوق ظهره"أن هدف الهجاء هو الحط من قدر المهجو في غالب الأحيان ، وذلك بأن يجعله الشاعر ضحكة للسامع وتفكهة للناس فيصوره بصورة مزرية "(الهجاء، صفحة ٢٥) ولا نعلم ما السبب الذي يدفع ابن هذيل إلى السخرية من مرض الرجل، ولكن على ما يبدو أنه من باب المحاذاة والتقليد للمشارقة،وهو الامر الذي دأب عليه الشعراء في الأندلس من تقليد ومحاكاة لشعراء المشرق القدماء أو العباسيين في الأغراض أو المعاني أو الأخيلة أو الأفكار أو الأساليب(الفن ومذاهبه في الشعر العربي، صفحة ٤١٧)، فقد سبقه الشاعر العباسي ابن الرومي (ت٢٨٣هـ) إلى ذلك وسخر من رجلٍ أحدب وذلك بقوله(ابن الرومي حياته من شعره، صفحة ١٠٨):

**قصرت أخادعه وغاب قذاله فكأنه متربص لن يصفعا**

**وكأنما صفعت قفاه مـرة وأحـس ثـانية لها فتجمعا.**

الخلق كله لله وليس من الإنسانية ولا من المروءة العبث في الكيان الإنساني فقد "تجاوز الشعراء كل ما هو منطقي ، فتشعبت أوصافهم وتباينت ، وخرجوا على المألوف ، وغيروا حقيقة الجسم ، حتى أصبحنا نشك في

صورته الآدمية ، فحاول بعض الشعراء استقصاء ما يمكن استقصاؤه من العيوب وإلصاقها بالمهجو" (السخرية في الأدب العباسي، صفحة ٢٧)وهذا يعني أن بعض الشعراء مغالين في سخريتهم من الإنسان.

لم يطرق ابن هذيل باب الهجاء إلّا مرتين في ديوانه، في المقطوعة السابقة وهي في وصف الأحدب، وفي نتفة أخرى في هجاء أحد الشعراء، ولعل ما ردعه إلى ذلك هو قوة الوازع الأخلاقي والديني عنده فهو دمث الأخلاق ومنصرف لدراسة الفقه والاستماع إلى الحديث في وقت مبكر من حياته، ولكن ما دعاه إلى هجاء ابن قزمان(ديوان ابن هذيل القرطبي، صفحة ١٢٣)هو من باب النقد والإصلاح الاجتماعي تقريبًا، لأنه يذكر في مقطوعته الهجائية أنَّ ابن قزمان فظيع اللفظ إذ يقول(ديوان ابن هذيل القرطبي، صفحة ١٢٣):

((الطويل))

**فتى بارد الأشعار يقطع لفظه بها وهو منحوسُ الجبينِ شتيمُ**

**يقرب وجهًا منك في خلقة قربه كأنّ انهدال الأنفِ منهُ قدومُ**

تصف الأنا الشاعرة لابن هذيل (الآخر) ابن قزمان بأنه لا كلمة له في المجتمع وشعره غير مؤثر وبارد، ولفظه فظيع، وجبينه منحوس لسوء طالعه، والناس تكثر من شتمه وما أشد هذا الهجاء، حتى يسخر الشاعر من صورة وهيئة الرجل فيشبه وجهه بقربة وهي وعاء يوضع به الماء ويشبه أنفه وهو متقدم عن وجهه وكأنه آلة القدوم التي يكون في هيئتها انتفاخ أو انهدال في الإمام وهي من آلات النجارة. وهذه النتفة هي من باب الهجاء الاجتماعي إذ إن (الذات) تبرز هنا بصفتها مُصْلَحة للمجتمع بينما يكون (الآخر) هو سبب الفساد في المجتمع"الهجاء الاجتماعي ضرب من الهجاء يوجه فيه الشاعر سهامه إلى أمور تتصل بعادات الناس وطبائعهم وأخلاقهم وصفاتهم، وهو لا يتناولها بطبيعة الحال من جوانبها الإيجابية أو المثالية، بل بما فيها من فساد واختلال، فالهجاء سريع النفاذ إلى مواطن العيب والخلل، ولا يستهويه إلا المثالب ومواضع القصور والنقص، فيلتقطها بعينه الناقدة، ويرى فيها مادة غنية بالصور، فيجمعها ويبرزها للعيان في صورة منفرة تثير الضيق والاشمئزاز"(الهجاء في الأدب الأندلسي، صفحة ١٣٥) وما دفع ابن هذيل إلى هجائه هو بسبب ألفاظه الرذيلة الفاسدة والتي تشيع الانحلال والانحراف في المجتمع.

نلمح في ديوان ابن هذيل عددًا من المقطوعات الشعرية يكون فيها الآخر محكومًا عليه بـ(الصلب) وهي عقوبة وعد الله بها المنافقين والفاسدين في الأرض قد ذُكرت في القرآن الكريم في قوله سبحانه وتعالى:

{إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ}، (المائدة:٣٣)، فيصور لنا الشاعر في هذه المقطوعات منظر الصلب وحالة المصلوبين، وفي الحقيقة أن هذا المنظر الذي يصوره الشعراء هو منظر مفجع وبشع ويدعو إلى الاشمئزاز وهذا ما التفت إليه الجرجاني(ت ٤٧١هـ) بقوله "وقد علم أن ليس في الدنيا مثله أخزى وأشنع ، ونكال أبلغ وأفظع ، ومنظر أحق بأن يملأ النفوس إنكارًا ، ويزعج القلوب استفظاعًا، من أن يصلب المقتول و يشبح في الجذع"(اسرار البلاغة، صفحة ٣٢١) فهذا التصور يظهر الآخر من خلال الكلمات بصورة مهولة بشعة مخيفة مثل قوله في مجموعة من المصلوبين:(ديوان ابن هذيل القرطبي، صفحة ١١٧)

((الكامل))

**تَترى رؤوسهمُ عليكَ كأنّها نُغرٌ تَوافَت فوقَ روسِ تلالِ**

**صُفّت بقارعةِ الرّصيفِ كأنما تقضي صلاةَ الخوفِ دون كمالِ**

**فاستقبلتكَ كأنما عن توبةٍ خضَعت لو ارتفعت إلى الإمهالِ**

وهنا تشبه الذات الشاعرة لابن هذيل مشهدًا للصلب يكون فيه المصلوب هو (الآخر) والذي يجعل من صلب هذا الآخر عبرة للآخرين ليعتبروا به، وفي هذا المشهد التصويري تتولى رؤوس المصلوبين وكأنها الطيور السود التي تتجمع في أعلى التلال دلالة على كثرة الصلب، وتنتشر هذه الرؤوس في الطريق ويدب الخوف من الموت والصلب إلى القلوب وإلى مشاعر الناس"فالقلق الأسمى الذي يخيم على الحياة كلها إنما هو ما نسميه بالموت، وليس قلق الموت مجرد قلق بعيد ينتظرنا في آخر الطريق، بل هو قلق دفين يندس في خبايا الشعور، حتى إننا لنكاد نتذوق طعم الموت في كل شيء"(مشكلة الحياة، صفحة ١٦٠) ليوظف بعد ذلك بعض المفردات من مخزونه اللغوي الديني مثل التوبة والصلاة والخوف، ليجعل من مشهد الصلب هذا عبرة للآخرين ليتوبوا ويعتبروا، ويكرر هذا المشهد مرة أخرى في قوله في شخص مصلوب ويقول:(ديوان ابن هذيل القرطبي، صفحة ٧٢)

((البسيط))

**ومد ضبعيه في أعلى مزاحمة للنجمِ ما كان عنها النجم ينحدرُ**

**كأنما هو فيها شخص مسترقٍ موقفٍ لبني الدنيا ليعتبروا**

تصور لنا الأنا الشاعر ا(لآخر) بصورة الضعف والهزل والقصور وهو مادًا يديه معلقا للصلب، مسترقا من الدنيا ومودعًا لها، فقد سلب هذا الآخر من الدنيا وعلق في موضع مرتفع ويدعو الناس إلى الاعتبار من ما جرى له، وفي هذا الموقف عبرة لبقية الناس في هذه الدنيا ليعتبروا مما حصل لهذا المصلوب. إن ذات الشاعر أرادت من خلال تصويرها للآخر في النتفة أعلاه تصوير حالة العجز الذي يمر بها ثم جعلت منهُ موقفًا للاعتبار لبقية الناس الآخرين فهو يقول لهم لا تفعلوا ما فعله كي لا تشاركونه هذا المقام وهذا المصير البائس.

ولعل هذه المقطوعة الأندلسية للقرطبي أشبه بمقطوعة عباسية للشاعر ابن نباته السعدي يقول فيها(ديوان ابن نباتة السعدي، صفحة ٢٩٥):

((الطويل))

**على الجِذْعِ مُوفٍ لا يزالُ كأَنَّه سليبٌ دعا قومًا إليه فأَقبلوا**

**فقامَ يُماريهم وقد مدَّ باعَه يقولُ لهم عَرضي أَم الطولُ أَطوَلُ**

مظهر الآخر المصلوب عند ابن نباته لا يختلف مع ابن هذيل وهو أيضا يدعو قومه غلى العبرة والاعتبار من ما جرى له، ولكن ما أوصله إلى هنا هو حماقته فهو حتى وهو مصلوب يجادل ويهازل بالقوم.

ولا ينفك ابن هذيل من ذكر الآخر المصلوب مرة أخرى حيث يقول(ديوان ابن هذيل القرطبي، صفحة ١٠٢):

((الكامل))

**فكأنّما فيهِ بقيّةُ رُوحهِ وكأنّما عن ريبةٍ لم يَنطُقِ**

**مُتقلّصُ الشّفتَينِ تَحسَبُ أنّهُ في الجذع يضحكُ للعُلا إذ يَرتقي**

**أوفى عليهِ في العُلوّ كأنّهُ مُتعلقٌ بالفرقدِ المتعلّقَ**

**قد قابلَ الجهةَ التي كانت لهُ فكأنّه باكٍ وإن لم يشهقَ**

يصور الشاعر في البيت الأول أن هناك جزءًا من بقايا الحياة في ذلك الجسد المصلوب الذي كان يصارع ريب المنايا وآثاره فيخط لنا صورة للآخر مائزةٌ يصف بها حال المصلوب وكأنه يعانق ذلك القضاء الذي كتب عليه

فيجده متبسمٌ ضاحك، ثم يعود الشاعر لبيان ماهية السمو التي وصل إليها ذلك المصلوب فيشبهه كأنه قد علق في الثريا لا مصلوبًا على خشبة، ولعل ذات الشاعر توحي إلى أن هذا الآخر المصلوب له حظوة من العلو والسمو والبطولة على عكس ما معروف تكون صورة المصلوب مسخة ومذمومة " وصورة المصلوب صورة قبيحة تشمئز منها الناظر لما يعتري هذا الشخص من حالات جسدية مثل سيلان الصدير من جسده، ومط شفاهه ، وقد تنبه الشعراء إلى هذه الصورة ونظر بعضهم إليها من خلال هذا المنظور فجاءت الصورة قبيحة فيها شفاء لنفس الناظر إذ صدرت عنده الصورة من خلال تجربة سعيدة ، وهناك من صدرت عنده الصورة من خلال تجربة مؤلمة إذ إنه أحب هذا الشخص وألمه ماحل به لذا جاء شعره معبرًا عن ألمه النفسي "(صورة المصلوب في العر العباسي بين الفنتازيا والحقيقة، صفحة ١)، كانت الأوصاف في الأبيات الثلاثة الأولى من المقطوعة تخص الجوهر الذي اكتنز ذلك المصلوب فجسد لنا مبدأ السمو الروحي فصوره تصويرًا لائقًا شامخًا، ولكن يعطف الشاعر في البيت الأخير إلى النزول للمنزل مغاير حيث أثار الوجع والبكاء والتألم والتفجع فكان الشاعر يجتذب معنيين وهو ما قصدناه آنفًا بالتصوير الجوهري أما التصوير في البيت الأخير فصور به الآخر بالتصوير المادي الذي شأنه شأن عامة الناس الذي تدركه كافة الآفات، فجسد ذلك الصراع الذي يحتدم بين المعنيين صورتين للآخر الأولى صورة العزة والشموخ والثانية صورة البكاء والتفجع

ونجد أن البديهة حاضرة في شعر ابن هذيل، ومنها ما نجده في ديوانه نقلًا عن صاحب كتاب (الصلة) ابن بشكوال(سير أعلام النبلاء، صفحة ج١٣٣٩/٤) (ت٥٧٨هـ) إذ يقول: أنه حين سماعه من وهب بن مسرة(سير أعلام النبلاء، صفحة ج٥٥٦/١٥)، في المسجد الجامع وقع لغط وكلام في المجلس بين أصحابه، وارتفع الصوت بينهم، وكان أحدهم يعرف بالبثرلي فأنكر عليهم ذلك بعض قومه حتى أخذ إليهم الدرة، وكان أبو بكر بن هذيل الشاعر الأديب بالحضرة، فقال ذلك على البديهة(ديوان ابن هذيل القرطبي، صفحة ٧٧):

((مجزوء الرمل))

**إن وهب بن مسرة بين أهل العلم دره**

**كان في مجلسه اليو م على العلم معره**

**إذ علا القيم رأ س البثرلي بدره**

من يتفحص في هذه المقطوعة يجد أن ذات الشاعر ابن هذيل تصور لنا ثلاثة صور للآخر الأولى بوصف العالم (وهب بن مسرة) بأنه العالم الحريص على علمه ولا يهادن عليه حتى في مجلسه وبين طلبته والمقربين ولا

يقبل المجادلين، فصورة الآخر هنا اختصت بالفقيه وهب بن مسرة وهو أحد فقهاء مذهب مالك، أما الذات(يحيى بن هذيل) فهو أحد طلبة مجلس هذا الآخر ، أما الصورة الثانية للآخر فهي صورة (القيم) وهو شخص يختاره المصلين للقيام بأعمال المسجد من صيانة ونظافة وحماية ، وفي هذه الصورة كان الآخر أشبه بحامي العلم والجلاد ولكن أي جلاد فهو الجلاد الذي يحمل سوط العلم ليسوط به المتطاولين عن العلم والعلماء ويوقفهم عند حدودهم، والصورة الأخيرة للآخر هي صورة الطالب المشاكس (البثرلي) والذي يجادل أساتذته ويعلو صوته عليهم وهذا الآخر المشاغب لم يضع حرمة للعلم ومكانه، فابن هذيل اقتنص ثلاث صور للآخر في مقطوعة واحدة وهي مقطوعة ارتجالية وهذا يدل على أن الشاعر له قدرة كبيرة في استحضار الصور الفنية، وعلم كبير في العروض وذلك لاستخدامه لأوزان مجزوءة قصيرة وخفيفة ومرنة تناسب وضع الارتجال والإنشاد والتغني(المرشد إلفهم أشعار العرب وصناعتها، صفحة ١٤٨_١٤٩)، ولم يميل إلى التطويل، ولم يعمد إلى التفعيلات الثقيلة.

إن المطلع على شعر ابن هذيل يجد أنه شاعر قليل المدح والهجاء فلم نجد إلا القليل من أشعاره على هذا النحو، ولعل ما دفعه على الانصراف من غرضي المدح والهجاء عدة أسباب، فهو لم يستخدم شعره وسيلة للتكسب، أو الاستعطاف والتقرب من الأمراء والملوك...ألخ، أو بسبب ابتعاده عن ميدان السياسة وشؤون الحكم، ولعل أهم الأسباب التي دفعته إلى ذلك قوة الوازع الديني عنده الذي جعله كثير الاهتمام في الفقه والحديث، ولربما لم نجد شاعر لم يقول في المديح منذ الجاهلية إلى فجر عصرنا هذا فهي سنة متبعة حيث يمدح الشاعر من يحبه أو ملكًا أو أميرًا أو قائدًا...ألخ " وقد كان هم المادحين في أكثر مدائحهم للرؤساء والحكام أن يجسموا الصفات الطيبة والمزايا الرفيعة والأخلاق السامية ، أو أن يخترعوها ويلصقوها بالممدوحين ليربحوا في حلبة المديح ، وليرفعوا لواء الممدوح بين الناس "(المديح، صفحة ٦).فالمداحين حتى وأن لم توجد صفات حسنة في الممدوح فهم يخترعون ذلك.

ومن أشعار ابن هذيل القليلة في المدح قصيدة فائية له قالها عندما تماثل الحكم المستنصر إلى الشفاء، يصور فيها ولائه للآخر السلطة ويسبغ عليه الصفات الإيجابية "وبعدما تقدم الذات الشاعرة ولاءها وحبها للآخر(السلطة) فإنها تتجه إلى بيان ما تتحلى به السلطة من قوة وشجاعة، وتسامح، وجود، ورحمة، وعفو"(الذات والآخر في الشعر الأندلسي، صفحة ١٤٢)يقول في مطلعها(ديوان ابن هذيل القرطبي، صفحة ٩٦):

((الكامل))

**يا فرجة للحادث المتكشف ويدا يفيق بها الزمان ويشتفي**

يمثل ابن هذيل تعافي الخليفة المستنصر بالفرج لكل نوائب الزمان ورزاياه ثم ينتقل إلى البيت الثاني ويقول:

**عمَّ السرورُ فكلُّ نفسٍ حالُها في حالِ يعقوبٍ ببُردةِ يُوسُفِ**

أدخل شفاء الخليفة الفرح والسرور إلى قلوب الناس وشبه الشاعر هذا الفرح مثل فرحة النبي يعقوب بقميص النبي يوسف –عليهما السلام– بعد سنين فراقه، وهنا يتوضح لنا تأثر الشاعر في قصة النبي يوسف –عليه السلام– وتوظيفها لتصوير الآخر"وقد تأثر الشعراء في الأندلس بهذا القصص القرآني، واتخذوه في أغراضهم الشعرية، وكانوا يتخذون من القصة القرآنية الجوانب التي تفيدهم، وتطابق ما يرمون إليه في كل غرض من الأغراض "(القصص القرآني في الشعر الأندلسي، صفحة ١٤٤)ليكمل بعد ذلك قصيدته حتى يصل إلى البيتين الذي يقول فيهما:(ديوان ابن هذيل القرطبي، صفحة ٩٦)

**قد لاحت الشمسُ التي أضواؤها من عبد شمس في المحلِّ الأشرفِ**

**وقد استقلت مرة كادت لها عمد السماء مع الرواسي تنكفي**

يشيد ابن هذيل بالخليفة من خلال أصله فيوصف كأنه الشمس التي تستمد ضوؤها من الأصل الأموي العريق من (آل عبد شمس) وهم من قريش ويذكر أيضًا (المحل الأشرف) أي البيت الحرام لأن قريش هم سدنة الكعبة وحماتها وعبد شمس منهم فيفاخر الشاعر بهذا الحسب والنسب الذي ينتسب إليه الخليفة الحكم المستنصر، ويصفهم أيضا كأنهم عماد السماء والجبال الرواسي التي يمتد أصلها إلى أعماق الأرض والذي تكون صامدة لا شيء يغيرها ويقلبها، ولا شيء يسقطها، ولعل هذا التشبه للملوك والرؤساء والقواد بالشمس والنجوم والكواكب كثير في الشعر العربي ومنها، يشبه النابغة الذبياني (الأعلام، صفحة ج٣/٥٣_٥٥)مليكهُ النعمان بن منذر(الأعلام، صفحة ٤٣) كالشمس بين الكواكب ليكشف عن المكانة الرفيعة والقدر السامي له بين الملوك إذ يقول فيه:(الديوان، صفحة ١٨)

**ألم تر أن الله أعطاك سُورة ، ترى كل ملك ، دونتها ، يتذبذبُ**

**فإنك شمسٌ ، والملوكُ كواكبٌ ، إذا طلعت لم يبدُ منهن كوكبُ**

فالشعراء العرب منذ الجاهلية كانوا يمتدحون ملوكهم بصفات تكون محط إعجابهم وإعجاب الناس حيث "أعجب الشاعر العربي بالخلق الحميد والرأي السديد والشجاعة الفائقة والكرم الواسع...لذلك أثنى على الرجال المتفوقين والشجعان المشهورين والقواد العظماء والرؤساء المسوّدين، وامتدح المثل العليا التي رآها عندهم"(المديح، صفحة

١٤)وهذا ابن هذيل يصور حال بلاده منكوبة بدون ولي أمرها وكيف ينجد ملكهم المستضعفين وينصرهم إذ يقول(ديوان ابن هذيل القرطبي، صفحة ٩٧):

**وقد استردّت رَيعَها ريحانةٌ ذبلت فأيّة بلدةٍ لم تزحفِ**

**وقد استقالت عثرة فأقالها ملك إليه شفاعة المستضعف**

يستمر الشاعر في ذكر الصفات الجميلة والنبيلة ومحاسن ومناقب ممدوحه مؤكدًا ذلك استعماله حرف التحقيق (قد) مع الفعل الماضي الذي استعمله غير مرة في أبيات القصيدة، فيجعل من الآخر الذي يصوره في أعلى درجات الرفعة والعزة والسمو، فمرة يشبه البلاد من دون خليفتها كالريحانة الذابلة التي فقدت رائحته الزكية، ومرة يصور كيف يستنجد به الضعفاء فينجدهم ويلبي حاجاتهم، وكيف يسامح ويعفو عن المخطئين، ثم يقول:

**ضحِكت إلى تلكَ السّلامةِ دولة تركت لعضد هِشامِها المُتخلَّفِ**

يشير ابن هذيل في هذا البيت من القصيدة إلى السرور الذي عم البلاد بتشافي الخليفة، ويلوح باسم ولي العهد ابن الخليفة (هشام)، وهنا ابن هذيل يقتنص صورة أخرى لآخر السلطة متمثلة ب(هشام المؤيد) ولكنه يصوره بالمتخلف لأنه لم يبلغ سن الحلم، ويقول في نهاية قصيدته(ديوان ابن هذيل القرطبي، صفحة ٩٧):

**يا ابنَ الخلائفِ من لُبابِ أميّةٍ والمُستقّل بعزّهِ والمكتفي**

**عُوفيتَ من كلّ الأذى ونعمتَ حُسنٍ وصرفُك وادعُ لم يُعنفِ**

تتابع ذات الشاعر الآخر الممدوح في هذا البيتان فتصفه بأنه عريق النسب وسليل الخلفاء من (آل أمية) ويكفيه من العزة هذا النسب، ويختتم قصيدته بالدعاء لممدوحه بالسلامة والتنعم بالعافية والابتعاد عن كل سوء.

ولابن هذيل قصة تروى مع شيخه ابن القوطية والذي تربطه به علاقة طيبة تدل على محبته واحترامه وتقديره لشيوخه والقصة هي "أنه توجه يوما إلى ضيعة كانت له في جبل قرطبة، وكان ابن القوطية صادرا عن ضيعة له هناك بسفح جبل قرطبة، وكان ينفرد فيها أحيانا عن الناس فلما رآه عرج عليه ابن القوطية واستبشر بلقائه فبادره ابن هذيل مداعبًا:

((البسيط))

**من أين أقبلت يا من لا شبيه له ومن هو الشمس والدنيا له فلك**

قال: فابتسم وأجابني سريعاً (بديهة):

**من منزل تُعجب النساك خلوته وفيه ستر على الفتك إن فتكوا**

قال ابن هذيل: فما تمالكت أن قبلت يده، إذ كان شيخي ودعوت له"(ديوان ابن هذيل القرطبي، صفحة ١٠٧).

وهذه القصة إن دلت على شيء فهي تدل على تقبل أنا الشاعر للآخر ومحبته له واحترامه وتعلمه منه لدرجة فهو يستفهم ويتعجب من إقباله عليه (من أين أقبلت)، ويصفه بأن لا شبيه له وهو كالشمس الذي يضيء بنور علمه عتمة هذه الدنيا عليه، وهذه الشمس يدور عليها كل ما في الفلك لتسمد من نورها ضياء، ولهذا فأن القرطبي صور "تعداد لجميل المزايا، ووصف للشمائل الكريمة، وإظهار للتقدير العظيم الذي يكنه الشاعر لمن توافرت فيهم تلك المزايا، وعرفوا بمثل هاتيك الشمائل" (فن المديح وتطوره في الشعر العربي، صفحة ٥)فالأنا الشاعرة للقرطبي في حالة توافق وصداقة مع الآخر الممدوح ابن القوطية.

وعلى هذا المنوال "لابن هذيل مقصورة، وقد أخبرنا القاضي عياض عنها بقوله: وكانت بينه –ابن هذيل– وبين الفقيه أبي عبد الله بن أبي زمنين، مهاداة أشعار في الذكرى حسنة، منها مقصورة لابن أبي زمنين أولها:

((الطويل))

**تذكّر أخي مثواكَ في منزلِ الهلكى رهينًا بهِ لا تستجيبُ إذا تُدعى**

وهي طويلة أجابه عنها ابن هذيل بأخرى أولها:

**أخي غايةٌ قُصوى ومن لي بالقُصوى وقد بلدت خيلي وعن مثلها تعيى**"(ديوان ابن هذيل القرطبي، صفحة ١٣٥)

تهدينا الأبيات أعلاه على علاقة الأخوة والمحبة بين أنا الشاعر والآخر الصديق "الشعر في هذا الاتجاه يصوّر العلاقة بين الأنا الشاعر والآخر الأديب علاقة أخوية تسودها المودة والمحبة بين الصاحبين،والتعبير يمتلئ شوقاً وحنينًا إلى الآخر، ولا نشطط إذا ما قلنا أنه شعر إخوانيات يدور بين الإخوان أو الأصحاب"(صورة الآخر في

الأدب الأندلسي والمغربي، صفحة ٢١٦) فابن هذيل في هذا البيت يبين موقفه من الآخر الصديق وهو موقف كان ابن هذيل فيه بشدة وضعف وتعب، ولا يساعده في هذا الحال غير صديقه ابن أبي زمنين الذي يكن له المحبة والاحترام فهو صاحبه الذي يقف معه في الشدائد مهما كانت.

**المبحث الثاني: الآخر المرأة**

لو لا المرأة لما كان للبشرية من وجود على وجه هذه الأرض، ولهذا يقال المرأة نصف المجتمع، لم يبتعد الأندلسيون عن هذا المنحى ولكن هم كانوا أكثر انجذاباً لها وإعجابًا بها "وقد تبوأت المرأة الأندلسية مكانًا ساميًا في حياة الرجل لا ينسى حفظته ذاكرة الأيام، ووعته سجلات الزمن، لذا وجدت من الرجال إعزازا وتكريماً حتى غدا تقديرها واحترامها موضع تقدير المؤرخين وإعجابهم فقد خلّد الأندلسيون المرأة إذ رأوا أن تأثيرها على الرجل ليس مقصورًا على مدة محددة من حياته بل إن هذا الأثر يبدأ من ولادته، ويستمر حتى وفاته"(صورة المرأة في الشعر الأندلسي، صفحة ١٨١)، فهي الأم والأخت والزوجة والحبيبة والجارية ...الخ، فالنسيج الاجتماعي في أي بيئة يكونه جنسين هما المرأة والرجل، وكل جنساً هو صورة للآخر في المجتمع، فالمرأة هي الصورة الأخرى للرجل لأنها تحمل سمات لا وجود لها عنده، ولهذا تكون محور اهتمام الرجل، بسبب فضول واستغراب وحنين الرجل لها، فهو يحاول الاقتراب إلى هذا الآخر متوددا له مستئنسًا به طالبًا للقبول وعارضًا عن الرفض والجفاء وكل هذا يحصل من خلال المفاتيح اللفظية الذي يتقرب بها الأنا الرجل للآخر المرأة(صورة الآخر في الأدب الأندلسي والمغربي، صفحة ١٧)، ولابن هذيل عددًا من النصوص الذي "تصور إحساس الأنا الرجل، بالآخر المرأة كيانا منبثقا عن مشاعر الأنا ذاتها، وكائنا لدواخلها العميقة؛ فهي جزء لا يتجزأ من بنيته النفسية، وصدامه النفسي معها كان صداماً مألوفًا ومرغوبا"(التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر، صفحة ١٤٠)وهذا ما نجده عند ابن هذيل القرطبي رغم أنهُ شاعر ميالًا إلى الفقه والعلم والحديث لكن رغم هذا نجده حرص على توظيف الآخر المرأة في أشعاره مثله في ذلك مثل الكثير من الشعراء الفقهاء في الأندلس "وسرى الترخيص في استباحة الوصال والحب إلى صفوف الفقهاء والعلماء، ولعل هؤلاء وآخرين غيرهم قد امتازوا بالتزام الحد المباح من الوصال والغزل مع صواحبهم"(الحياة الأجتماعية في الأندلس، صفحة ٤٩)، وهذا يعني أن سلكهم طريق الفقه والتدين لم يكن يثنيهم عن القول في الغزل والوصال والتشبيب، وصورة الآخر المرأة تتجلى بنسبة كبيرة في شعر الغزل باعتباره الغرض الذي يعنى بها.

وفي الحقيقة أن شعر الغزل هو الغرض الأكثر انتشارًا بعد شعر الطبيعة في الأندلس "وإذا كانت الطبيعة لها المكان الأول بين أغراض الشعر الأندلسي، فالغزل كان ينساب على شفاه الشعراء ويدعو إليه كل ما في الأندلس

من طبيعة جميلة وحياة حضرية ناعمة ومجالس أنس ورخاء وخمر وغناء"(في الأدب الأندلسي، صفحة ١٢١) ومن المعروف أن غرض الغزل عند العرب منذ العصر الجاهلي هو على أنواع عدة منها العذري والصريح "نالت الآخر المرأة مكاناً رحباً في شعر الأنا الرجل، وقد تصدرت أهم أغراضه الشعرية وهو غرض الغزل، وهو من أكثر الأغراض تداولا بين الشعراء والغزل تعبير عن أثر الجمال الأنثوي في نفس الشاعر، وقد تجسدت صورة المرأة الحبيبة في اتجاهات عدة،منها الاتجاه العفيف الذي يصف فيه الشاعر معاناته ووجده تجاه الحبيب، ومنها الاتجاه الحسي الذي يصف الشاعر فيه مفاتن المرأة وجمال أجزاء جسدها وخفة حركتها، ومدى تأثره بها، ومنها الاتجاه الماجن وهو قليل في الشعر الأندلسي والمغربي"(صورة الآخر في الأدب الأندلسي والمغربي، صفحة ٢٧)وعلى هذا الأثر فإن شاعرنا ابن هذيل القرطبي طرق باب الغزل مجسدًا به صورة الآخر المرأة في تشبيهات ونعوت وصفات جميلة وتوصيف لجسدها بحركتها وسكونها، ومواطن إعجابه بالعديد من مفاتنها، وهذا يعني أننا أمام تجربة يعرضها لنا الشاعر نريد أن نقف عندها ونتأملها من خلال تصوير الشاعر للمرأة، سواء أكانت تجربة حقيقية مر بها الشاعر أم صورة خيالية نسجها من مخيلته(الأنا والاخر في المعلقات العشر، صفحة ١٢٠) ومن ذلك قول ابن هذيل القرطبي في إشراق الوجه(ديوان ابن هذيل القرطبي، صفحة ١١٢):

**((الكامل))**

**وجه أغر كأنه بدر الدجى فعليه من نور السعود كمال**

**تتزاحم اللحظات في إشراقه فكأنه فوق العيون هلال**

يصف الشاعر وجه حبيبته المشرق يشع كأنه البدر في أوج أوقاته ووجها يجلب السعادة و الرضى عند رؤيته، وكذلك كل معاني الجمال تتزاحم في هذا الوجه الجميل لترسم إشراقتها البهية وحتى إن حاجبها يبدو وكأنه الهلال فوق عيناها، وهنا (أنا) الشاعر ابن هذيل تصف لنا (الآخر) المرأة بالجمال والرقة والعذوبة،ويشبهها بتشبيهات بعيدة عن الواقع "فليس هناك امرأة بهذه المواصفات ، وإنما اختار الشاعر أوصافًا مثالية حاول أن يسبغها على معشوقته ، فالإنسان يبحث دائمًا عن الجمال والشعراء حين يصفون محبوباتهم يتخيرون لهن أجمل المواصفات."(الأنا والاخر في المعلقات العشر، صفحة ١١٩)وهذه الصور المستحسنة الجميلة التي ترسمها الذات الشاعر لأبن هذيل للآخر (المرأة) عديدة في ديوانه وعلى وتيرة ونمط هذا أيضًا قوله في نتفة قالها في فتور عيون النساء(ديوان ابن هذيل القرطبي، صفحة ٥٧):

((الوافر))

**كأنّ عُيونهنّ عيونُ عِينٍ فواترُ قد سَكِرنَ بغير راحِ**

**يموتُ العذلُ في أهلِ التَّصابي بهِنّ فما لأهلِ العشقِ لاحِ**

نجد في النتفة أعلاه هو بيان صورة من صور الآخر المنوطة بالجنس الأنثوي فهو يقوم بتوظيف ملامح ذلك الآخر من خلال ذكر جزء من محاسنه ولا سيما عيون تلك الحبيبة الذي هام فيهما الشاعر وهام فيها كل من لمح تلك العيون إلى حد الذهول، يقول المقري في الغزل الأندلسي وشعرائه "إذا تغزلوا صاغوا من الورد خدودًا، ومن النرجس عيونًا، ومن السفرجل نهودًا، ومن قصب السكر قدودًا، ومن قلوب اللوز وثغور الأقاح مباسم، ومن ابنة العنب رضابًا"(نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، صفحة ج٣٢٣/١) وهذا يدل على مبالغتهم في التغزل فصور لنا صفاء وجمال تلك العينين ومدى السحر الذي كانا يستجذبان فيه ذات الشاعر وكل من يراهما حتى العاذل الذي يلوم العاشق ويتربص به، وهنا تتوسع الذات الشاعرة للقرطبي في تصويرها للآخر فهي تصور آخر (المرأة) والآخر (العاذل)،"ولعل الاستفاضة في تصوير الآخر المرأة والآخر / العاذل تأتي لطرح نظرة للوجود والحياة لأن الآخر في هذا الصدد يكون فاعلاً ومنفعلا"(الآخر في شعر ابن الدهان الموصلي، صفحة ٩٠)، فالعاذل بعد لومه أنسحر وأنجذب لهما ليكف لومه عن العاشق الولهان بعيون حبيبته.

ولابن هذيل القرطبي مقطوعة شعرية من خمسة أبيات تعد واحدة من أجمل أشعاره بالغ الناس في استحسانها، وعندما سمعها الشاعر أبي الطيب المتنبي وهو قليل الرضا عن شعر الآخرين قال: هذا أشعر أهل المغرب(الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، صفحة ٣٤٧)، وهي في الغزل يقول فيها(ديوان ابن هذيل القرطبي، صفحة ٦٤):

**((البسيط))**

**لمّا وضعت على قلبي يدي بيدي وصحتُ في الليلةِ الظلماءِ وأكبدي**

**ضجَت كواكبُ ليلي في مطالعها وذابت الصخرةُ الصَماءُ من كمدي**

**وليس لي جُلَدُ في الحُبِّ ينصُرُني فكيفَ أبقى بلا قلب بلا جلد**

**وكيف أشرحُ ما ذابَ الجَمادُ له لمن غدا خائفًا إشارتي بيدي**

**لمّا رآني مُشيرًا للسّلامِ بها ألقى على خدّه مُضاعفُ الزّرَدِ**

في هذه الأبيات تبرز الأنا العاشقة للشاعر مشاعرها بوضوح اتجاه الآخر المعشوقة فقد وضع يده على قلبه ووضع اليد الأخرى فوق يده الأولى ليسندها وهو يصرخ في ليلة دامسة الظلام من عذابه في الحب، وتستمع لصراخه الكواكب العالية في السماء، وتستمع وتذوب الصخور الصلبة المتينة من شدة حزنه، فقد العاشق صبره في طريق هذا الحب وبات بلا قلب وبلا قدرة على تحمل الحزن والألم، فالجماد أحس به وواساه وشاركه بينما حبيبته تخاف حتى من أن تشير بيدها وترد له السلام والتحية وتسدل وشاحها الثخين وتغطي وجهها عند ملاقاته وهنا تتجلى صورة الآخر بهذه المرأة التي تتقسى على عاشقها وتعذبه(صورة الآخر في الأدب الأندلسي والمغربي، صفحة ٢٨).

بالغ الشعراء الأندلسيين في عشقهم حتى وصلوا إلى درجة عالية من الحزن فأصبحوا يبكون فراق خليلاتهم و يتفجعون بعدهن عليهم "وقد يصل تعلق الذات الشاعرة (الرجل) بالآخر (المرأة) إلى حد البكاء عند رؤيتها لشدة حبه لها، وهذا التصور تردد كثيرًا عند شعراء الأندلس في عصر الطوائف، وهو ما يبين لنا مدى المكانة التي احتلتها المرأة حينذاك"(الذات والآخر في الشعر الأندلسي، صفحة ٦٥) وهذا يدلل على الأثر الكبير الذي يتركه الجنس الآخر في نفوس الشعراء الأندلسيين فالشاعر الأندلسي "يرى في خضوعه لحبيبته، وفي المخاطرة في سبيلها وحمايتها مظهرا من مظاهر رجولته، لا ضعف فيه ولا خور، وكان طبيعيا أن تشغل المرأة فراغ ذلك المجتمع"(النقد الأدبي الحديث، صفحة ١٨٣)ومن نظير هذا ما قاله شاعرنا ابن هذيل في مقطوعة تحكي لنا نحوله من الحب(ديوان ابن هذيل القرطبي، صفحة ٣٦):

((الطويل))

**كأني من فرط الصّبابةِ عاشقٌ يخاف عليه كاشحًا فهو مُضمَرُ**

**إذا عادني من لستُ أنساهُ لم يجد سوى أدمُع لم يدرِ من حيثُ تقطرُ**

**ويعلمُ أنّي قائمُ الشّخصِ كُلمّا أحنُّ إلى ذكر الحبيبِ وأزفرُ**

**كما الرّيحُ إن هبّت سمعتَ وليست يراها ناظر حين ينظر**

تبين لنا الذات الشاعرة لابن هذيل القرطبي في هذه الأبيات ضعفها في مواجهة الأخر (محبوبته) فهو لشدة حبه وضعفه ونحوله من هذا الحب صار لا يتيسر لأحد رؤيته فهو كاشح مضمر لا يمكن حتى لمن يعاديه رؤيته، لكن يمكنه رؤية دموعه الغزيرة المسكوبة والذي لا يعلم حتى هو منبع هذه الدموع المسكوبة ومصدرها، ولا برهان

ولا دليل على أنه حي سوى نفسه وحنينه لذلك الحبيب، وهو بذلك صار كالريح لها صوت وأثر وليس له منظر، فالذات الشاعرة للقرطبي في الأبيات آنفة الذكر تبين لنا ضعفها أمام الآخر (المرأة) وصدها عنه وظلمها لهُ وتمنعها عن وصاله.

ويستمر ابن هذيل في قوله الغزل العفيف الذي يعاتب فيه الحبيبة ويشتاق إليها ويشكو لها حاله، شأنه في ذلك شأن اغلب الشعراء الأندلسيين والذي كان الغزل يستحوذ على الجزء الأكبر من دواوينهم، وربما لم نجد ديوان لشاعر أندلسي يخلو من الغزل لأن هذا الغرض يتصل بالطبيعة الإنسانية منذ القدم(الأدب الأندلسي، صفحة ١٢٤)، وأن سبيل (الأنا) الشاعرة العاشقة للوصول إلى (الآخر) المرأة المعشوقة، هو التودد والتغزل والتوسل والتذلل والمداراة من قبل الأنا، ويقابله التمنع والغنج من قبل الآخر "إن الغزل بالمرأة يتطلب من الرجل أن يتحدث إليها وأن يكون حديثه مؤثرًا جذابًا حتى يستميلها إلى وده ويستهويها إلى حبه . وهو في هذه السبيل يسلك شتى الوسائل ويركب صعب الأمور . يحتال إذا وصل بالحيلة إلى غايته ، و يدارى إذا نفعت المداراة ، ويتذلل لها ، ويتوسل إليها لعل ذلك يغنى من الأمر شيئًا . والمرأة بين هجر ووصال وتمنع ودلال . وفراق ولقاء لا تكاد تلقاك باسمة المحيا فتنعم بهذا الرضا حتى تنقلب عابسة الوجه ، مقطبة الجبين ، فتشقى بهذا العبوس أضعاف ما نعمت بأسباب الرضا والابتسام ."(الغزل عند العرب، صفحة ٨) وابن هذيل في تصويره للآخر (المرأة) يسلك هذا النوع من التغزل بها فمن هذا القبيل يقول القرطبي في إحدى مقطوعاته الغزلية(ديوان ابن هذيل القرطبي، صفحة ١١٥):

((الطويل))

**ألا عودة من طيفهِ فيرى حالي ألا يا أذّكاري للكرى لو أتى تالي**

**يكادُ يضيقُ الجوُّ منعظم زَفرتي وتهفُو نجومُ الليلِ من فرطِ إعوالي**

**أبى غيرَ تعذيبي ولو أمر الرّدى أطاعَ ولكن فعلهُ هُوَ أنكى لي**

وقد واكب ابن هذيل تلك الكوكبة الأندلسية التي كانت من شأنها تبالغ في تصوير الآخر (المرأة) فنجد ملامح التص ابي والهجوع والشوق واللوعة قد استحوذت على مساحة كبيرة في المقطوعة من بدايتها الى نهايتها فنجد الشاعر يجود بكل ما لديه ليبسط مساحات من الحزن فتذكي بذلك لواعجه جراء صد المحبوبة عنه فنجد ان أكبر فرحة عنده عندما يلتقي بالمحبوبة خلسة في حلم أو طيف سراب، لكنه لم يلقى منها سواء الفراق والعذاب والنأي عنه بعيداً.

وعلى وتيرة هذا فأن ديوان ابن هذيل فيه الكثير من المقطعات والقصائد الشعرية الذي يصور بها ضعف ذاته كعاشق امام الآخر(المرأة) كمعشوقة يحبها ويطلب رضاها ووصلها ويرجو قربها منه ويشكو فراقها وبعدها عنه.

في التشبب بلآخر (المرأة) تتوهج العواطف فترسم الانا الشاعرة أجمل الكلمات وأنضجها "يفصح الشاعر عما يجيش في نفسه ناقلا عواطفه، وأحاسيسه بمشاعر ورؤى مندفعة باتجاه الآخر / المرأة بوهج نفسي متغزلا بأسلوب راق مبينا وجوده الاجتماعي، وانفعالاته بنسق شعري مائز محاولا التقرب من الآخر / المرأة، أو الإفصاح عن نضج أدبي وقدرة شعرية"(الآخر في شعر ابن الدهان الموصلي، صفحة ٩٣) وهنا تبث الأنا الشاعرة في كلماتها مشاعرها بقوة اتجاه الآخر (المرأة).

ومثل ما أسلفنا سابقًا طريق التدين لم يمنع ابن هذيل وأمثاله من نظم الشعر في المرأة ومكانتها والتغزل بها بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك، فكتبوا الغزل الماجن للنساء وصرحوا عن مفاتنهن، وهذا النوع من الغزل كتب في المشرق وانتشر بنحوٍ واسع، وكتب في الأندلس ولكنه ضئيل جدا (الأدب الأندلسي، صفحة ١٢٨)، أي أن الغزل الماجن أقل من الغزل العفيف في الأندلس"والغزل أكبر عون لنا في فهم هذه الحياة الاجتماعية ، فهو يرسم المرأة في لباسها وفي أعضاء جسدها وفي حركاتها وتنقلها ومنهاج عيشها"(الغزل، صفحة ١٤)ففي نتفة لابن هذيل القرطبي في مشي النساء يقول فيها:(ديوان ابن هذيل القرطبي، صفحة ٦٦)((الوافر))

**مَشَينَ إلى الرّكابِ وقد أنيخت كما يَمشي الأسارى في القُيُودِ**

**تُغازِلُنا مُلاء الخزِّ غمدًا بأطرافِ الرّوادفِ والنّهودِ**

ابن هذيل في البيت الأول يوصف الآخر(النساء) فيشبه مشي النساء كمشي الإبل البطيء قبل أن تبرك على الأرض، أو المشي الذي يمشيه الأسرى متمايلين وهم مقيدين، وتكون مشية معروفة ومتميزة فتتمايل بها النساء وتبرز فيها معالم أجسامهن، ثم ينتقل في البيت الثاني من النتفة إلى الغزل الصريح الماجن فيذكر كيف تربط النساء الإزار الحريرية حول خصرهن ليكون فاصلًا بين أعضاء جسدها فتبرز فيها أرداف النساء ونهودهن، " وهذا النوع – كما يفهم من اسمه يميل إلى وصف المرأة ، وإلى المبالغة في الوصف و إلى مجاوزته إلى ذكر أمور أخرى في المرأة، تثير اللذة، والشهوة ."(الغزل عند العرب، صفحة ١٧٦) اذ صور ابن هذيل في هذه المقطوعة مفاتن جسد الآخر المرأة.

**الخاتمة:**

في النهاية ما بين مدح وهجاء، ومحبة واحترام وذم، وجد وسخرية وتهكم، في وصف وتصوير (الآخر) نستخلص في هذين المبحثين أن علاقة الذات الشاعرة لابن هذيل القرطبي مع الآخر(الرجل) في مجتمعه وبيئته الأندلسية هي علاقة التآلف والمحبة والتوافق مرة، ونثبت ذلك من خلال مديحه للخلفاء الأندلسيين ولبعض أصدقائه وشيوخه من أدباء وعلماء قرطبة، وأيضًا ومن خلال مهاداة الأشعار بين الأنا الشاعرة للقرطبي وبين الآخرين، وعلاقة تذمر وسخرية وتعارض مرة أخرى، ولعلنا نستطيع أن نستدل على ذلك في ذكر هجاءه وسخريته للأحدب وذمه لأصحاب الذنوب من المصلوبين، وأيضا نجد ذكره للآخر (المهجو) ابن قزمان والذي أراد بهجائه أن يثنيه عن القول الفاحش المقذع وأن يصلح من شأنه وشأن المجتمع الذي يكون هو أحد أفراده.

ومن خلال ما أحصيناه من أشعار في ديوان ابن هذيل في ذكر (الآخر) المرأة، نستنتج أن حضورها وعلاقتها تتجسد في صور عديدة من خلال العلاقة التفاعلية بينهما– الأنا والآخر– وعناية الذات الشاعرة بالآخر (المرأة) عناية كبيرة فاستحضرت أوصافها وسكناتها وحركاتها وأحوالها وطبائعها ومفاتنها، فتجسد (الذات) صور التغزل والحب والشوق واللوعة والفراق والبكاء...ألخ، على (الآخر) المرأة.

رأينا أن ابن هذيل على الرغم من تدينه وتفقهه أجاد في قول الغزل والتشبيب بالآخر (المرأة)، حتى أنه قال فيها الغزل الماجن مصورًا فيه المفاتن.

بالغت الذات الشاعرة للقرطبي في تصوير الآخر (المرأة المحبوبة) بالرقة والعذوبة وهي تصورات ناعمة رقيقة تنفع وتناسب غرض الغزل، إذ صور إشراقة وجه المحبوبة وجمالها وجمال عيناها وفتورهما وشوقه لتلك العيون، وصور أجزاء جسدها، وأيضا له تشبيهات غريبة في وصف الآخر (المرأة) مبنية على الوهم والخيال الواسع البعيد مثل تصويره لمشهد ارتحال الأحبة وفراقهم باليوم الممطر الندي.

جفاء الآخر (المحبوبة) وصدها وفراقها وبعدها وتدللها جعل من ذات الشاعر ذات ناحلة هزيلة من الحب ضعيفة لا تقوى على فعل أي شيء، بسبب حالتها المأساوية من تضاعف الحزن، فهي تذرف الدموع، وتطيل البكاء، وتميل إلى التنازل والتذلل للمحبوبة على أمل اللقاء، لأنها تعاني الصبابة والسهد وحرارة الشوق، فذاته تعاني من مرارة عشقها ولا تقيم شأن للكرامة والعزة في سبيل لقاء الآخر (المحبوبة).

وأخيرًا ذات الشاعر ابن هذيل في حالة توافق دائمي مع الآخر (المرأة)، حتى في حالة جفاء الآخر (المحبوبة)، فنجد أن ذات الشاعر تتودد إليها محاولة ثنائها عن ذلك الجفاء، ولم نجد في ديوانه أي تعارض مع الآخر (المراة).

- **ثبت المصادر والمراجع**


ابن بسام الشنتريني. (١٩٩٧). *الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة*. بيروت: دار الثقافة .

أحمد أبو حاقة. (١٩٦٢). *فن المديح وتطوره في الشعر العربي*. بيروت: منشورات دار الشرق الجديد.

احمد حاجم الربيعي. (٢٠٠١). *القصص القرآني في الشعر الأندلسي*. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة.

أحمد حاجم الربيعي. (٢٠١٩). *صورة الآخر في الأدب الأندلسي والمغربي*. عمان: دار غيداء.

أحمد حاجم الربيعي. (٢٠٢٠). *ديوان ابن هذيل القرطبي*. عمان: دار غيداء.

أحمد هيكل. (١٩٥٨). *الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة*. القاهرة: دار المعارف .

أحمد ياسين السلماني. (٢٠٠٩). *التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر*. دمشق: دار الزمان.

الزركلي. (٢٠٠٢). *الأعلام*. بيروت: دار العلم للملايين.

المقري التلمساني. (٢٠١٥). *نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب*. بيروت: دار الصادر .

النابغة الذبياتي. (بلا تاريخ). *الديوان*.

جودت الركابي. (١٩٦٦). *في الأدب الأندلسي*. القاهرة: دار المعارف.

حسان ابو رحاب. (١٩٤٧). *الغزل عند العرب*. القاهرة: مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية .

رحمى عمران ، محمد ابو ذر خليل. (٢٠١١). *صورة المرأة في الشعر الأندلسي*. لاهور.

زكريا إبراهيم. (١٩٧١). *مشكلة الحياة*. القاهرة: دار مصر للطباعة.

سامي الدهان. (١٩٨٢). *الهجاء*. القاهرة: دار المعارف .

سامي الدهان. (١٩٩٢). *المديح*. القاهرة: دار المعارف.

سعد سامي محمد. (٢٠١٢). *الأنا والاخر في المعلقات العشر*. البصرة.

سلافة صائب ، محمد صائب. (٢٠١٢). *صورة المصلوب في العصر العباسي بين الفنتازيا والحقيقة*. بغداد.

شمس الدين الإمام الذهبي. (١٩٩٦). *سير أعلام النبلاء*. بيروت: مؤسسة الرسالة.

شوقي ضيف. (١٩٨٧). *الفن ومذاهبه في الشعر العربي*. القاهرة: دار المعارف .

عباس محمود العقاد. (٢٠١٣). *ابن الرومي حياته من شعره*. القاهرة: مؤسسة هنداوي.

عبد الأمير مهدي الطائي. (١٩٧٤). *ديوان ابن نباتة السعدي*. القاهرة.

عبد الخالق عودة. (٢٠٠٣). *السخرية في الأدب العباسي*.

عبد الرحمن علي حجي. (١٩٨١). *التاريخ الأندلسي*. دمشق: دار القلم .

عبد القاهر الجرجاني. (٢٠٠١). *أسرار البلاغة*. بيروت: دار الكتب العلمية .

١. عبدالله الطيب المجذوب. (١٩٥٥). *المرشد لفهم أشعار العرب وصناعتها*. مصر: مكتبة مصطفى البابي الحلبي.

عجيل مدلله عبيد. (٢٠٢٢). *الآخر في شعر ابن الدهان الموصلي*. الموصل.

فوزي عيسى. (٢٠٠٧). *الهجاء في الأدب الأندلسي*. الإسكندرية : دار الوفاء .

قدامة بن جعفر. (٢٠١٨). *نقد الشعر*. بيروات: دار الكتاب العلمية.

محمد سامي الدهان. (١٩٨١). *الغزل*. القاهرة: دار المعارف.

محمد سعيد الدغلي. (١٩٨٤). *الحياة الأجتماعية في الأندلس*. الأردن: ، دار الساعة .

محمد غنيمي هلال. (٢٠٠٥). *النقد الأدبي الحديث*. القاهرة: نهضة مصر.

محمود شاكر محمود. (٢٠١٩). *الهوية الأدبية الأندلسية*. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة –وزارة الثقافة.

محمود شاكر محمود. (٢٠٢٢). *حديث الأندلس، بغداد دار شمس الأندلس*.

منتصر نبيه صديق. (٢٠٢١). *الذات والآخر في الشعر الأندلسي*. مصر: دار النابغة للنشر .

منجد مصطفى بهجت. (١٩٨٨). *الأدب الأندلسي*. الموصل: دار الكتب للطباعة والنشر .

مي عودة ياسين. (٢٠٠٦). *الآخر في الشعر الجاهلي*. نابلس.